

في تاريخ النحو

للدكتور عبد الحميد سند الجندى

الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية

لقد كان من حدوث اللحن ما حمل القوم على الاجتهاد لحفظ العربية وتيسير تعلمها للأعاجم ، فشرعوا يتكلمون في الاعراب وقواعده حتى تم لهم مع الزمن هذا العلم . وتجمع المصادر على أن النحو نشأ بالبصرة ، وبها نما واتسع وتكامل وتفلسف ، وأن رءوسه كلهم بصريون .

وأول من أرسل في النحو كلاماً أبو الأسود المتوفى سنة ٦٧^(١) . وقد أفاض ابن النديم وابن الأنبارى في أولية وضع النحو وسبب ظهوره ، وهو كلام طويل معروف^(٢) ويؤخذ منه أنه قيل ان علياً كرم الله وجهه هو الذى ألقى على أبى الأسود شيئاً من أصول النحو ثم قال له : « انح هذا النحو » . وقيل ان أول من تكلم فيه نصر بن عاصم وقيل عبد الرحمن بن هرمز ، وقيل لم يصل الينا شيء قبل يحيى بن يعمر وابن أبى اسحاق الحضرمى .

وان من يقرأ بامعان ترجمة أبى الأسود فى كتب التراجم ، ثم يفكر فى تواردها أكثر المصادر على اعتباره واضع الأساس فى بناء النحو لا يستبعد ذلك . فالرجل ذو ذكاء نادر وعقل حصيف ، ثم هو بليغ أريب مرز الذهن . وحسبك اختراعه « الشكل » الذى عرف بنقط أبى الأسود . ولا شك أن الشكل أجدى على حفظ النصوص من حدود النحو ، وقد سبق السريان أبى الأسود فى وضع ضوابط للحركات فى لغتهم ، ومن الجائز أن يكون أبو الأسود قد استأنس بهم حين هم بوضع الشكل وقد كانوا يملئون البصرة فى زمنه^(٣) .

(١) المعارف ١٩٢

(٢) أنظر الفهرست ٣٩ وطبقات الأدباء ص ٣

(٣) محاضرات، الأستاذ جويدى ص ٨٣

ومهما يكن من شيء ، فإن هؤلاء الذين ينسب إليهم الأولوية في وضع النحو في بعض الآراء مثل نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر وعنبسة الفيل وميمون الأقرن كلهم تلاميذ أبي الأسود أو تلاميذ تلاميذه ، عنه أخذوا العربية والقراءة بالبصرة . وعن هؤلاء أخذ علماء البصرة طبقة بعد طبقة . ثم نشأ بعد نحو مائة عام من تلاميذهم من ذهب إلى الكوفة فعلم بها فكان منه ومن تلاميذه ما يسمى «مدرسة الكوفة» . وخلق بي أن أبين ذلك بشيء من التفصيل :

فيحيى بن يعمر (١٢٩) روى عن ابن عمر وابن عباس^(١) ، ووصف بالعلم والأمانة . وعنبسة الفيل « تعلم النحو وروى الشعر وظرف^(٢) » حتى صار — كما يقول الخليل — « أبرع أصحاب أبي الأسود^(٣) » . وميمون كان رأس الناس بعد عنبسة ، وأبو عبيدة يجعله بعد أبي الأسود في تأسيس العربية^(٤) . ونصر بن عاصم (٨٩) كان « أحد القراء الفصحاء وأخذ عنه أبو عمرو بن العلاء والناس » ويذهب بعضهم إلى أنه أول من وضع العربية^(٥) .

والرواة يذكرون أن يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم اللذين قد ابتكرا نقط الحروف لتمييز المتشابه منها كالباء والتاء والياء والنون بإشارة من الحجاج . وتلك خطوة كبرى تلى خطوة أبي الأسود في ضبط العربية .

وهؤلاء هم عبد الله بن أبي اسحاق الحضرمي وأبو عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر الثقفي .

فأما عبد الله الحضرمي (١١٧) فأمره مع الفرزدق معروف إذ كان يتعقبه ويأخذ عليه سقطات نحوية ، وقد هجاه الفرزدق من أجل ذلك^(٦) . وكان الناس يفاضلون بينه وبين معاصره أبي عمرو بن العلاء ويقدمونه في النحو ويقدمون أبا عمرو في

(١) الفهرست ٦٢

(٢) أخبار النحو بين البصريين ص ٢٤

(٣) المزدهر ٢/٣٩٨

(٤) أخبار النحو بين البصريين ص ٢٥

(٥) أخبار النحو بين البصريين ص ٢١ . والفهرست ٥٩

(٦) انظر الشعر والشعراء ٢٥ طه شاعر .

اللغة وكان عبد الله « أعلم أهل البصرة وانقلهم ، فرع النحو وقاسه وتكلم في الهمز حتى عمل فيه كتاب مما أملاه (١) .

وأما أبو عمرو بن العلاء (١٥٤) فمن أشرف مازن وأحد الأعلام في القرآن واللغة ، وهو أحد القراء السبعة ، ويقول فيه أبو عبيدة : أعلم الناس بالقراءات والعربية وأيام العرب والشعر ، وكانت دفاتره ملء بيته الى السقف (٢) . وأخذ عن نصر بن عاصم وعن يحيى بن يعمر وعن قارىء مكة عبد الله بن كثير .

وأما عيسى بن عمر فقد أخذ عن عبد الله بن أبي اسحاق الحضرمي وأبى عمرو بن العلاء ، وعد في القراء البصريين ، وهو امام في العربية والنحو ، ولعله أول من ألف في النحو ، وقد وضع كتابين لم يصل الينا منهما أثر . والظاهر أن تلميذه الخليل بن أحمد قرأها وأعجب بهما فقال :

ذهب النحو جميعا كله غير ما أحدث عيسى بن عمر
ذاك (اكمال) وهذا (جامع) فهما للناس شمس وقمر (٣)

والظاهر أنهما فقدتا في زمن متقدم لأن أبا سعيد السيرافي — وليس بينه وبين عيسى بن عمر أكثر من مائتي سنة — يقول : لم يقعا الينا ولا رأينا أحدا ذكر أنه رآهما (٤) .

ويذكرون عن ابن عمر هذا انه كان فصيحا ، ويقول عنه ابن قتيبة : كان صاحب تعبير في كلامه واستعمال الغريب فيه (٥) .

وقد تلمذ على عيسى بن عمر الخليل بن أحمد وسيبويه وأبو زيد الأنصاري أئمة البصريين ، وأبو جعفر الرؤاسي الذي صار فيما بعد رأس الكوفيين ، وخلفه في ذلك تلميذاه الكسائي والقراء . وبهذه الطبقة نصل الى ما سموه بالمذهب الكوفي .

(١) الزهر ٢ / ٢٠٠

(٢) بغية الوعاة ٨٩

(٣) في أصول النحو لسعيد الافغاني ١٤١

(٤) الفهرست ٦٢

(٥) المعارف ٢٣٥

وكل واحد من هؤلاء مشهور ، فالخليل بن أحمد (١٧٥) كان الغاية في تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليقه ، فقد بسطه وفرع على أصوله . وهو أول من استنبط العروض ، وعمل كتاب العين الذي تهيأ به ضبط اللغة . وهو أستاذ سيويه ، وعامة الحكاية في كتابه عنه ، فكلما قال سيويه (وسألته) أو « وقال » من غير أن يذكر المسئول أو القائل فهو الخليل . هذا الى نواح أخرى مجيدة تدل على عبقريته وفضله على العربية . ويقول عنه ابن جنى : سيد قومه وكاشف قناع القياس في عمله (١) .

وأما أبو زيد الأنصاري (٢١٥) فكان ثقة صدوقا راوية ، وكان مقدما في النحو على الأصمعي وأبي عبيدة ، ولكن غلبت عليه اللغة والنوادير والغريب ، وحولها يدور أكثر مصنفاته .

وأما سيويه (١٨٠) فأمره مشهور وكتابه يعتبر قرآن النحو كما يقولون ، وكان في أول أمره يطلب الحديث والفقهاء . وذات يوم كان يستملى على حماد بن سلمة فقال حماد : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس أحد من أصحابي الا وقد أخذت عليه ليس أبا الدرداء . فقال سيويه : ليس أبو الدرداء . فقال حماد : لحت يا سيويه ، ليس أبا الدرداء ، فقال سيويه : لا جرم لأطلين علما لا يلحنني فيه أحد أبدا (٢) . وراح يطلب النحو فلازم الخليل بن أحمد وأخذ أيضا عن يونس وعيسى بن عمر وغيرهما . وكان الخليل يؤثره ويقدمه على جميع أصحابه ، فدون سيويه جميع ما أخذه عن الخليل ، ونقل فيه عن غيره من بعض البصريين والكوفيين ، فجمع في كتابه ما لم يجتمع قبله في كتاب وصارت كتب النحو بعده عالية عليه .

والكتاب مملوء بالقياس والعلل والقروض مما يدل على أنه متأثر بفقهاء الحنفية وقد عاصر سيويه تلميذى أبي حنيفة أبا يوسف ومحمدا .

وقد روى « الكتاب » ونشره أبو الحسن الأخفش الأوسط ، وقد لزمه أثناء تأليفه ، وكان يقول في ذلك : ما وضع سيويه في كتابه شيئا الا عرضه على . وكان الأخفش مخلصا لسيويه ، فقد خرج الى بغداد لينظر الكسائي اتصارا

(١) الخصائص ٣٦٦/١

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية للاسكندري ١٠٢

لشيخه سيبويه لأنه كان من كبار المتكلمين المعتزلة ومن أحذق الناس بصناعة الجدل . ولينتقل الآن الى رأس مدرسة الكوفة أبي جعفر الرؤاسي .

أخذ أبو جعفر العلم في البصرة على أئمتها كأبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر ، ولكنه لم ينسبه مثل تلاميذها الآخرين ، وعاش بالبصرة غير معروف (١) . وهو أول كوفي ألف في العربية ، وكل ما ورد في كتاب سيبويه من عبارة « وقال الكوفي » إنما يعني أبا جعفر الرؤاسي هذا . ويقال أنه عرض كتابه « النیصل » على أصحاب النحو بالبصرة فلم يلتفتوا اليه واستخزى هو من اظهاره . وهو يعد من قراء الكوفيين .

ولما رجع الى الكوفة وجد فيها عمه معاذ بن مسلم الهراء (١٨٧) مرجع الناس في العربية في هذه المدينة ، وكان يعنى بمسائل الصرف خاصة ، ويقال انه أول من وضع التصريف (٢) ، وتبعه في ذلك من قرأ عليه من الكوفيين حتى قيل انهم فاقوا البصريين فيها . ومن هنا عدتهم بعض العلماء واضعى على الصرف . وقد تخرج على الرؤاسي تلميذاه المشهوران الكسائي والقراء .

فالكسائي أعجمي الأصل وأحد القراء السبعة وامام الكوفيين في العربية . وسمى الكسائي لأنه كان يحضر مجلس معاذ الهراء والناس عليهم الخلل وعليه كساء ورداء (٣) ، واسمه « أبو الحسن علي بن حمزة » . وقد أخذ عن يونس البصرى ، وجلس في حلقة الخليل ثم خرج الى بوادي نجد والحجاز وتهمامة يأخذ عن الأعراب ، فانفذ خمس عشرة قنينة حبر في الكتابة عن العرب سوى ما حفظ ، ثم قدم البصرة فوجد الخليل قد مات وفي مكانه يونس ، فجرت بينهما مسائل أقر له فيها يونس وصدره في موضعه . ثم انتقل الى بغداد فعاش في قصر الرشيد مؤدبا للأمين والمأمون ، ونال الخطوة وأقبلت عليه الدنيا . ولما خرج الرشيد الى الري اصطحب معه الكسائي ومحمد بن الحسن الشيباني فاتفق أن ماتا سنة ١٨٩ في يوم واحد فقال الرشيد : دفنت الفقه والنحو في يوم واحد (٤) .

(١) انظر معجم الادباء ١٨/١٢٣

(٢) المزهري ٢/٢٠٢

(٣) الفهرست ٦٥

(٤) انظر الفهرست ٦٥ ووفيات الاعيان ١/٣٣٠

وأما الفراء فقد قرأ بالبصرة على يونس بن حبيب ثم قرأ على أبي جعفر
الرؤاسي ثم لازم الكسائي ببغداد . واسم الفراء « أبو زكريا يحيى بن زياد
الأسلمي » .

والذي حثه على الخروج الى بغداد شيخه الرؤاسي ، وقد صنف كتاب «معاني
القرآن» الذي قال فيه أحدهم : لم يعمل أحد قبله مثله ولا أحسب أحدا يزيد
عليه^(١) . وكتبه التي تركها تدور حول مسائل من اللغة والنوادر والصرف
والنحو والقرآن . ويقول ابن النديم : كان الفراء يتفلف في تأليفاته ومصنفاته ،
يعنى يسلك في ألفاظه كلام الفلاسفة^(٢) وكان غاية في الذكاء والحفظ ، وقد أمر
المأمون أن تفرد له حجرة من حجر دار الحكمة ووكل به من يكفيه كل حاجته
حتى لا تتشوف نفسه الى شيء ، وصير له الوارقين فكان يعلو وهم يكتبون حتى
صنف كتاب «الحدود» . واسم الكتاب يدل على تأثره بالمنطق ، فهو يريد بالحدود
التعاريف كحد الفاعل وحد المعرفة وحد الحال وهكذا ، وهذا يفسر لنا قول ابن
النديم . وكان الفراء عظيم الفضل ، ولذلك يقولون : لولا الفراء لما كانت اللغة
ويقول ابن الأنباري : لو لم يكن لأهل بغداد والكوفة من علماء العربية الا
الكسائي والفراء لكان لهم بهما الافتخار على جميع الناس اذ انتهت العلوم
اليهما^(٣) .

وتكفينا هذه النبذة عن رجال المدرستين ، ولنحاول الآن تتبع الخلاف بينهما
ومعرفة طبيعته متوخين الايجاز فنقول :

يشاهد أن سيبويه ينسب أقوالا كثيرة في كتابه الى « الكوفي » وهو
أبو جعفر الرؤاسي . ويبدو أن مرافقة الرؤاسي للخليل بن أحمد أستاذ سيبويه
في القراءة على عيسى بن عمر الثقفي خلقت بينهما نوعا من الأنس سمح للخليل أن
يطلب من الرؤاسي كتابه ، فروى منه بعض أقواله لتلميذه سيبويه فأثبتها هذا
في كتابه . ويؤيد هذا أن الرؤاسي نفسه يقول : بعث الى الخليل يطلب كتابي

(١) الفهرست ص ٦٦

(٢) الفهرست ص ٦٦

(٣) طبقات الادباء ١٩٨

فبعثت به إليه فقراه^(١) . ومن المحتمل جدا أن يكون سيبويه قد أخذ من الرؤاسي بعض أرائه في النحو إبان إقامة الأخير بالبصرة .

وقد كان الخلاف يقع بين البصريين أنفسهم ، ولكنه لم يكن ذا خطر ، إذ لا يعدو أن يكون لونا من المذاكرة وحكاية الأقوال المخالفة والرد عليها . وكثيرا ما نرى سيبويه يورد لأشياخه أقوالا يخالفهم فيها . ويدلنا على ذلك قوله : وزعم الخليل .. وزعم يونس .

ومن المرجح أنه حدث خلاف بين الخليل والرؤاسي ، ولكنه كان خلافا لم تدنسه شوائب المادة ، فظل هادئا صافيا لأن كليهما كان عفيفا تقيا صالحا لا يأبه لأعراض الدنيا .

ثم شاء الله أن يقرب بنو العباس شيخ الكوفيين الكسائي وتلاميذه وأن يوكلوا إليهم أمر تربية أبنائهم من ولاة العهد والأمراء وأن يندقوا عليهم العطايا ، وذلك لأن أهل الكوفة — على العموم — كانوا أخلص للعباسيين وأحسن سابقة معهم لأنهم كانوا شيعة بنى هاشم ، على عكس أهل البصرة ، فقد كان أكثرهم عثمانيين . هذا إلى أن الكوفة قريبة من بغداد ، فقرع علماؤها أبواب العاصمة قبل أهل البصرة . ولذلك اتخذ الكسائي معلما لولدي الرشيد ، وتلميذه القراء معلما لأولاد المأمون ، وابن السكيت تلميذ القراء معلما لأولاد المتوكل . وقلما نجد بصريا يحظى بتقريب من قصر الخلافة كاليزيدي البصري أحد معلمى المأمون ، وكالمبرد الذى شارك ثعلبا الكوفي فى تعليم عبد الله بن المعتز .

وقد ذاق الكوفيون طعم الحياة الناعمة بجوار بيت الخلافة ، فحرصوا على ذلك أشد حرص ، ووقفوا بالمرصاد للبصريين الذين يفوقونهم علما ، فأخذوا يحطون من قدرهم ويحولون بينهم وبين الخطوة المادية والأدبية لدى الخلفاء العباسيين لأنهم يعلمون علم اليقين أن علمهم قليل بجانب علم البصريين . ويقول أبو حاتم السجستاني : لم يكن لجميع الكوفيين عالم بالقرآن ولا كلام العرب ، ولولا أن الكسائي دنا من الخلفاء فرفعوا ذكره لم يكن شيئا ، وعلمه مختلط بلا حجج ولا علل الا حكايات الأعراب مطروحة لأنه كان يلقتهم ما يريد ، وهو على

(١) الفهرست ٢٤

ذلك أعلم الكوفيين بالعربية والقرآن ، وهو قدوتهم واليه يرجعون (١) .
وأيا ما كانت المبالغة في قول أبي حاتم ، فلا جدال في أن الكوفيين كانوا دون
البصريين علما ومعرفة ، وانهم أرادوا ستر هذا القصور بالتمكين لأنفسهم في
قصور الخلفاء والاجهاز على خصومهم في غير ما هوادة أو ريث . ومن أجل هذا
كان الكوفيون يتحرون أن تكون الملاحظة بينهم وبين البصريين أمام الخلفاء وكبار
رجال الدولة ممن يدهم الأمر والسلطان . وكانوا يتخذون كل الوسائل
لكى يظفروا بالعلبة والنصر ليظامنوا من عزة البصريين ، ويرتفعوا هم
في أعين الخلفاء . وقد حدثت مناظرات كثيرة بين الفريقين ، وظل أوار
هذه المناظرات مندلعا حتى أواخر القرن الثالث . وكان البصرى والكوفى
لا يكاد يرى أحدهما الآخر حتى يتحدث النقاش بينهما في أمور النحو واللغة
جميعا . وقد أثبت الزجاجى في أماليه وياقوت في معجمه كثيرا من هذه المناظرات
الطريفة . وأشهرها مناظرة الكسائى والأصمعى في حضرة الرشيد (٢) ، وفيها
يستخرج الكسائى للكلمة عدة أوجه للاعراب ، وقد سكت الأصمعى لأنه كان
صاحب لغة ولم يكن صاحب اعراب . ومناظرة ابن الأعرابى والأصمعى عند سعيد
ابن مسلم ، وكانت لغوية ، وفيها هزم الأصمعى (٣) . ومناظرة الكسائى وسيبويه
بين يدي البرامكة (٤) . ومناظرة الكسائى واليزيدى وهو يحيى بن المبارك وقد
اتصل بخال المهدي يزيد بن منصور الحميرى ليؤدب أولاده ، واليه نسب فقيل له
(اليزيدى) . وكانت هذه المناظرة نحوية وجرت في حضرة المهدي ، وهى تبين لنا
مبلغ مخالفة الكسائى ، وقد غلبه اليزيدى (٥) .

وأخيرا مناظرة المبرد وثعلب (٦) ، وفيها يرمى كل منهما الآخر بالتمويه
والكذب والادعاء .

(١) معجم الأدباء ١٣/١٩٠

(٢) انظر أمالي الزجاجى ص ٣٤ ومعجم الأدباء ١٣/٨٣

(٣) أمالي الزجاجى ص ٣٩

(٤) معجم الأدباء ١٣/١٨٥ وأبو الفدا ٢/١٦

(٥) أمالي الزجاجى ص ٤٠ ومعجم الأدباء ١٣/١٧٨

(٦) أمالي الزجاجى ص ٣٩ ومعجم الأدباء ١٩/١١٨

وكانت الغلبة في معظم هذه المناظرات للكوفيين بطبيعة الحال لأن الزمن كان يجري في ركابهم كما قلنا ، وكان يعينهم على الفوز هؤلاء الأعراب الذين كانوا يقفون بباب الخلفاء معتفين ، اذ يقال انهم كانوا يحملون على تأييد الكسائي بالرشوة أو بالايعاد ، وأحيانا كانوا يتقدمون هم أنفسهم بذلك ارضاء للخليفة ورجال السلطان الذين كانوا يميلون الى الكوفيين .

ويرى الأستاذ أحمد أمين أن هذه العصية العلمية بين المدرستين كانت مؤسسة على العصية السياسية التي ظهرت بين المصريين ^(١) . وأنا أرى أنها كانت متأثرة بها وليست مؤسسة عليها لأن العلماء أيا ما كان موطنهم في ذلك العصر كانوا في تنافس لا ينقطع ولذلك كان أهل مصر الواحد يختلفون فيما بينهم كالذي كان يحدث بين يونس والخليل البصريين ، وبين المفضل الضبي وحماد الراوية الكوفيين . بل ان المبرد البصري قد أفرد كتابا في القدح في كتاب سيويه والغص منه .

ونستطيع أن نرد الخلاف بين المذهبين البصري والكوفي الى أمرين :

السمع والقياس . ولنتحدث عن كل منهما بشيء من الإبانة .

كان أكثر عرب البصرة من قيس وقيم ، وهاتان القبيلتان في الذروة الأولى ممن يؤخذ عنهم ويقتدى بهم في اللسان العربي . وكانت تحف بها قبائل عربية سليمة السليقة لم تصد لغتها بمخالطة الأعاجم .

وكانت هذه القبائل ترد سوق البصرة المشهورة (المبرد) وهي - كما يقولون - عكاظ الاسلام ، فيها تناشد وتفاخر كما فيها تجارة وبيع .

وكانت البصرة الى جانب ذلك تقع على سيف البادية ، فقامت رحلات متبادلة بين علماء البصرة والأعراب ، فكان لذلك كله أثره في فصاحة أهل البصرة وسلامة لغتهم . ومن ثم ضربوا المثل بأدب البصريين ، وجعلوا هذا الأدب بمنزلة ما اقتصت به الأمم طبيعة من الميراث التاريخي كفلسفة اليونانيين وصناعة أهل الصين وما إليها .

(١) ضحى الاسلام ٢/٢٩٤

ولقد ضرب في بوادي الجزيرة الأصمعي وأبو عبيدة ويونس وأبو زيد والخليل وأبو عمرو بن العلاء وغيرهم . وكانوا يتحرون في الأخذ عن العربي سلامة لغته وسليقته وعن الراوي الصدق والضبط . وكان الخلفاء في زمن بني أمية لا يثقون الا في علماء البصرة ، فقد حدث أهل البصرة أنهم كانوا يرون كل يوم راكبا من ناحية بني مروان ينيخ على باب قتادة بن دعامة السدوسي (وكان أجمع الناس توفي سنة ١١٧) يسأله عن خبر أو نسب أو شعر^(١) . ويصف أبو عمرو بن العلاء تدافع الناس وازدحامهم عليه فيقول : لو أمكنت الناس من نفسي ما تركوا لي طوية^(٢) .

أما الكوفة فهي أدخل في العراق وأقرب الى الاختلاط بالأعاجم ، ولغة أعرابها أقل سلامة من لغة أعراب البصرة لأن أكثرهم من عرب اليمن .

وكان يطرأ عليها ضعاف الأعراب ، فأسرع الفساد الى لغة أهلها . وبظاهر الكوفة كانت منازل النعمان بن المنذر والحيرة والخورق والسدير وما هناك من القصور والمنتزهات . وكل ذلك غير طبيعي في تاريخ الفصاحة العربية .

هذا الى أن بين الكوفة وجزيرة العرب بادية السماوة مما جعل رحلات علمائها الى الجزيرة شاقة عسيرة . وكان للكوفة سوق أرادوا بها أن تحاكي مريد البصرة وهي سوق (كناسة) ، لكنها كانت داعية الى افساد اللغة لا عاملا على صيانتها ، لأن الأعراب الذين كانوا يؤمنونها غير فصحاء .

ومن أجل هذا وأمثاله كان البصريون يفتخرون الكوفيين فيقولون : نحن نأخذ اللغة من حرشة الضباب وأكلة اليرابيع ، وأتم تأخذونها عن أكلة الشواريز والكواميخ^(٣) . والمراد الأخذ عن أعراب البادية الجفافة وأعراب الأسواق الضعفاء الذين اختلطوا بأهل المدن . وقد ذكروا أن الكسائي ذهب الى البصرة مرة وأخذ العلم الصحيح عن أساتذتها ثم خرج الى بغداد فقدم أعراب الحليمات وهم غير فصحاء ، فأخذ عنهم شيئا فاسدا فخلط هذا بذلك فأفسده .

(١) تاريخ آداب العرب للرافعي ١/٤١٠

(٢) المصدر نفسه .

(٣) تاريخ الرافعي ١/٣٧٠ . حرش الضب : صاده . الربوع : دويبة . الشواريز : الألبان الشخينة . الكواميخ : المخللات يشهى بها الطعام .

كل هذه العوامل صرفت الكوفيين الى رواية الشعر ، فذلك هو الميسور لهم .
ويبدو لى أن ذلك كان ميراثا فيهم منذ نزلها العرب ، ويدلنا على ذلك أن عليا
كرم الله وجهه لما رجع بهم من قتال الخوارج على أن يستعدوا لقتال أهل الشام
فتخاذلوا عنه لم ير أبلغ في ذمهم من صفة التشاغل بالشعر فقال يخطبهم : « اذا
تركتكم عدتم الى مجالسكم حلقا عزين ، تضربون الأمثال وتناشدون الأشعار ،
تربت أيديكم وقد نسيتم الحرب واستعدادها ، وأصبحت قلوبكم فارغة من
ذكرها ، وشغلتوها بالأباطيل والأضاليل (١) » .

ومن الطريف أن حمادا الراوية يثبت تأصل اشتغال الكوفيين بالشعر فيزعم
أن المختار بن ابي عبيد لما خرج بالكوفة قيل له أن تحت القصر الأبيض الذى كان
للنعمان كنزا ، فاحتقره فوجد الطنوج (أى الكراريس) التى كان النعمان أمر
أن ينسخ فيها أشعار العرب فأخرجها ، قالوا : فمن ثم كان أهل الكوفة أعلم
بالشعر (٢) .

وكان الكوفيون الى جانب ذلك لا يعنون بصدق الراوى وضبطه كما كان
يفعل البصريون ، ولذا كثر الموضوع فى أكثر رواياتهم . قال أبو الطيب اللغوى :
الشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة ، ولكن أكثره مصنوع ومنسوب الى
من لم يقله ، وذلك بين فى دواوينهم (٣) .

وقصة خلف الأحمر مع الكوفيين معروفة (٤) . وروايتهم الأكبر حماد الراوية
كالثمس شهرة فى الكذب والوضع (٥) ، وله قصة مشهورة مع المهدي بحضور
المفضل الضبى وفيها يصرح فى غير خفاء بأنه قد نحل زهيرا بعض الأبيات (٦) .

هذا فرق ما بين المدرستين فى أمر السماع وصحته والتحرى فيه . أما القياس
فالأمر بينهما فيه مختلف كذلك ، فلقد جعل البصريون هدفهم عصمة اللسان من

(١) نهج البلاغة ١٧٠/١

(٢) الخصائص ٣٩٣/١

(٣) مراتب النحويين ١١٩

(٤) انظر وفيات الأعيان ٣٩٣/١

(٥) اقرأ كلمة المفضل الضبى عنه فى معجم الأدباء ١٠/٣٦٥

(٦) انظر الاغانى ١٧٣/٥ بولاق .

الخطأ وتيسير العريية على من يتعلمها من الأجانب ، ولذلك نراهم يضعون قواعدهم على الأعم الأغلب . فاذا تناثر هنا وهناك نصوص قليلة لا تشملها قواعدهم مع ثبوت صحتها تأولوها حتى تنطبق عليها القاعدة ، أو نصوا على شذوذها فتحفظ ولا يقاس عليها .

فالبصريون قد أحسنوا صنعا بمنهجهم هذا لأنهم حكموا المنطق والعقل حتى جاءت قواعدهم متماسكة متناسقة في الجملة . ولا بد في كل تنسيق من تشايب يخرج بعض النتوء من الهيكل المشذب ، فكانوا يختارون من اللغة أشيعها وأقربها الى القياس . وهذا عمل جليل حفظ اللغة وصانها من العبث ، وقد بين هذا المنهج أبو عمرو بن العلاء اذ سأله رجل : أخبرني عما وضعت مما سميت عريية : أيدخل فيه كلام العرب كله؟ فقال : لا ، فقال : كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة؟ فقال : احمل على الأكثر وأسمى ما خالفني لغات (١) .

أما الكوفيون فانهم جمعوا كل ما وصلت اليه أيديهم من لغات العرب بلهجات قبائلها ، فسمعوا الشاذ واللحن والخطأ ، وأخذوا عن فسدت لغته من الأعراب وأهل الحضرة ، ثم جعلوا كل شاذ ونادر قاعدة لنفسه فتشتت قواعدهم ، ولم يعد لها ما يمسكها من نظام أو منطق ، وضاعت الغاية من وضع النحو وهي كونه أداة تيسير لتعلم العريية ، اذ أصبح لهم قواعد بقدر ما جمعوا من شواهد . ويقول ابن يعيش : فلو سمعوا بيتا واحدا فيه جواز شيء مخالف للأصول جعلوه أصلا وبوبوا عليه بخلاف البصريين (٢) .

وأول من سن للكوفيين هذه الطريقة شيخهم الكسائي ، وقد قال ابن درستويه أحد تلاميذ ابن قتيبة : كان الكسائي يسمع الشاذ الذي لا يجوز الا في الضرورة فيجعله أصلا ويقيس عليه فأفسد النحو بذلك (٣) . ولقد ضاق اليزيدي بالكسائي وبقياسه وبسماحه فقال :

كنا نقيس النحو فيما مضى على لسان العرب الأول
فجاءنا قوم يقيسونه على لى أشياخ قطر بل
ان الكسائي وأشياعه يرفون بالنحو الى أسفل (٤)

(١) ضحى الاسلام ٢/٢٥٩

(٢) شرح المفصل ٣٥٠ طبعة اوربا .

(٣) بغية الرعاة ٣٢٦

(٤) أخبار النحو بين البصريين ص ٤٤ ومعجم الأدباء ٢٠/٣١

ولهذا وأشباهه اضطر الكوفيون الى الوضع فيما لا يصيون له شاهدا .
وأنت تجد في شواهدهم من الشعر ما لا يعرف قائله ، بل ربما استشهدوا بشطر
بيت لا يعرف شطره الآخر كالشاهد الذي يحتجون به على جواز دخول اللام في
خبر لكن ، وهو قول القائل المجهول : ولكنني من حبها لعמיד .

وتتج عن ذلك كله أنهم كانوا يجيزون الأوجه الكثيرة في الأعراب ولا
يعدمون أن يجدوا لكل وجه شاهدا من لدنهم . ومن أجل ذلك كثرت روايتهم
للشعر .

ومن غريب الأمر أن الكسائي هذا الذي كان يروى عن غير ثقاة الأعراب
كان يبكي خوف الزلزل ، فقد دخل عليه الفراء يوما فوجده يبكي فقال ما يبكيك ؟
قال : هذا الملك يحيى بن خالد يوجه الى ليحضرني فيسألني عن شيء ، فان
أبطأت في الجواب لحقني منه عتب ، وان بادرت لم آمن الزلزل . قال الفراء :
يا أبا الحسن من يعترض عليك ؟ قل ما شئت فأنت الكسائي . فأخذ الكسائي
لسانه وقال : قطعه الله اذن اذا قلت ما لا أعلم (١) .

ونستطيع أن نجمل النزعتين بكلمة للأستاذ أحمد أمين يقول فيها : ان
البصريين كانوا أكثر حرية وأقوى عقلا ، وان طريقتهم أكثر تنظيما وأقوى سلطانا
على اللغة . والكوفيون أقل حرية وأشد احتراماً لما ورد عن العرب ولو موضوعا .
فالبصريون يريدون أن ينشئوا لغة يسودها النظام والمنطق ويميتوا كل أسباب
الفوضى من رواية ضعيفة أو موضوعة أو قول لا يتمشى مع المنطق . والكوفيون
يريدون أن يضعوا قواعد للموجود حتى الشاذ من غير أن يهملوا شيئا حتى
الموضوع ، فكل عملهم أن يضعوا الشيء الى لفته ، فاذا كان للشيء الواحد جملة
صور وضعوا له جملة قواعد (٢) .

فلا عجب اذا حكم الزمن لعلم البصريين بالبقاء لأنه الأضبط ، ولا عجب اذا
كان نحو الناس بصريا حتى اليوم .

ويلاحظ أن الكوفيين قد اتجهوا في العلم جهة الايضاح والتبسيط أكثر مما
فعل البصريون حتى أن الفراء مؤدب أولاد المأمون جعل النحو في متناول

(١) تاريخ آداب العرب للرافعي ٢٥٧/١

(٢) ضحى الاسلام ٢٩٦/٢

الصبيان . وعلّة ذلك — فيما يرى الأستاذ أحمد أمين — قرب الكوفيين من الخلفاء واشتغالهم بمهنة تأديب الأمراء ^(١) . وهذا تعليل مقبول .

وهناك أمر يجب أن نشير إليه وهو أن النحاة جميعاً قد اتخذوا في أصولهم أصول الفقه عند الحنفية خاصة . ويصرح ابن جنى بذلك فيقول : ينتزع أصحابنا العلل من كتب محمد بن الحسن الشيباني ^(٢) . وقد ظل هذا الاحتذاء ملازماً للنحاة في مختلف عصورهم ، فالسيوطي الذي توفي سنة ٩١١ يؤلف كتاب « الاقتراح » ويقول في المقدمة : « ورتبته على نحو أصول الفقه في الأبواب والفصول والتراجم ... فيعرف به القياس وتركيبه وأقسامه من قياس العلة وقياس الشبه وقياس الطرد ، إلى غير ذلك على حد أصول الفقه ، فان بينهما من المناسبة ما لا يخفاء به لأن النحو معقول من منقول كما أن الفقه معقول من منقول » .

وقد ظل الخلاف محتدماً بين المدرستين حتى أصبحت مدينة بغداد مورد طلاب العلم ومهبط العلماء من كل فج بسبب تشجيع الخلفاء للعلم واغداق المال على المشتغلين به واستقدامهم لتعليم الأمراء ، فالتقت في مدينة بغداد ألوان من كل علم وفن اختلطت وامتزجت وكان منها ألوان جديدة مطبوعة بالسمة البغدادية العامة . وذلك ما كان في النحو ، فقد نشر الكوفيون فيها نحوهم وقصدها نحاة بصريون وسعى كل منهما في نشر مذهبه ، حكى الأخفش : وردت بغداد فرأيت مسجد الكسائي فصليت خلفه الغداة ، فلما انقزل من صلاته وقعد بين يديه القراء والأحمر وابن سعدان سلمت وسألته عن مائة مسألة ، فأجاب بجوابات خطأته في جميعها ^(٣) . وهذا يدل على أن المذهبين كانا يتسابقان في بغداد .

وقد نشأ عن ذلك طبقة جديدة في بغداد اختارت من المذهبين وكونت ماعرف بالمذهب البغدادى . ويلاحظ أن الطابع البصرى أغلب في المذهب البغدادى على العموم ، وذلك لأن الاصاله التي في المذهب البصرى قد فرضت نفسها عليهم فرضاً . والبقاء للأصلح كما يقولون .

(١) ضحى الاسلام ٣١٢/٢

(٢) الحصائص ١٦٨/١

(٣) معجم الأدباء ٢٤٣/٤

وكان خاتمة الخلاف بين المدرستين ممثلة في النزاع الذي كان بين أبي العباس ثعلب الكوفي المتوفى سنة ٢٩١ والمبرد البصرى المتوفى سنة ٢٨٥ . وبعدها زال هذا النزاع أو على الأقل زالت حدته ، وأصبحت مواطن الخلاف بين المدرستين تدرس على أنها مسائل تاريخية كما يصنع الأساتذة المشتغلون بالنحو في هذه الأيام .

وقد ألف أبو البركات ابن الأتبارى كتابا في الخلاف بين نحاة المصريين على نمط ما صنع الفقهاء في كتبهم التى لقوها في الخلاف بين الحنفية والشافعية واسم الكتاب « الانصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين » .

ويقول في مقدمته : « سألتنى أن ألخص لهم كتابا لطيفا يشتمل على مشاهير المسائل الخلاقية بين نحويى البصرة والكوفة على ترتيب المسائل الخلاقية بين الشافعى وأبى حنيفة ليكون أول كتاب صنف في علم العربية على هذا الترتيب .. الخ » . وقد سرد ابن الأتبارى مائة وعشرين مسألة من المسائل التى كانت موضع خلاف بين علماء المدرستين . وللكتاب نصيب كبير من اسمه لأن المؤلف قد برأ نفسه من التعصب واعتصم بالانصاف . ويتوهم البعض أن الرجل يميل الى البصريين ولذلك يرجح آراءهم في كثير من الأحيان ويرد على الكوفيين . والواقع أنه كان مصنفا أشد انصاف ، ولم يكن ترجيحه للمذهب البصرى ناجما عن التعصب ، وإنما كان مبعثه الانصاف الذى تزكاه استقامة المذهب البصرى .